نَقدُ الشَّعائِر

من جهة الخرافة

من كتاب: فقه الشعائر الدينيّة

النهج الإلهي لإبقاء الدين وإحياء الأمّة

آية الله الشيخ

فَاضِل الصَّفَار

الناشر

Shia-Documents

نقد الشعائر

من جهة الخرافة

بسم الله الرحمن الرحيم

نسب البعض تعظيم الشعائر الدينية إلى الخرافة داعياً إلى وجوب تركها والتخلّي عنها تنزيهاً للمؤمنين المعظّمين لشعائر الدين منها ، إلاّ أنّا إذا عرضنا هذا الإشكال للنقد والتحليل نجد أنّه لا يستند إلى وجه علمي ، وتفصيل ذلك يتوقّف على معرفة معنى الخرافة وتحديد موضوعها ، ثمّ ملاحظة علاقتها بالشعائر الدينية ومدى تطابقها مع المفهوم العقلائي للشعائر ، وهذا ما نعرضه من خلال أُمور :

الأمر الأوّل : في معنى الخرافة

الخُرافة بضمّ الخاء في اللغة الحديث المستملح المكذوب بسبب عدم مطابقته للواقع أو عدم تصديق الناس له ; لكونه من الغرائب . يقال هذا حديث خرافة نسبة إلى رجل استهوته الجن فكان يحدّث بما رأى فكذّبوه ، فقالوا : حديث خرافة[1].

والخَرَف بفتح الخاء والراء هو فساد العقل من الكبر[2]، والملازمة بينهما ظاهرة ; لأنّ الثاني سبب للأوّل . هذا في اللغة ، وأمّا في العرف فتطلق الخرافة على عدّة معان :

الأوّل : المعاني المتوهّمة أو المتخيّلة ولا تمت إلى الواقع بصلة ، كالذي يتصوّر

---

١ - أُنظر لسان العرب : ج٩ ، ص٦٥ ٦٦ ، (خرف) ; مجمع البحرين : ج٥ ، ص٤٣ ٤٤ ، (خرف) .

٢ - معجم مقاييس اللغة : ص٢٩٣ ، (خرف) .

أنّ خالق الكون هو الصنم ، وأنّ شعور الشاعر وقدرته على نظم الشعر ناشئة من جنّي الشعر ; إذ كان أهل الجاهلية يتصوّرون بأنّ الشاعر لا يقدر على نظم شعره ما لم يدخل جنّي الشعر في رأسه .

الثاني : المعاني الباطلة ، سواء كانت ناشئة من وهم أو عادات وتقاليد أو منظومة من الأفكار ممزوجة بين الصحيحة والباطلة والمأخوذة من الوهم والعقل والتقاليد ، نظير الأديان الوثنية وعقيدة الثنوية في الخالق وعقيدة الجبر ونحوها من معتقدات وأفكار مركّبة من غثّ وسمين ، فلذا تكون باطلة ; لأنّ الحقّ لا يكون إلاّ خالصاً .

الثالث : كلّ ما لا دليل عليه من عقل أو شرع فهو خرافة ; لأنّه يكون حديثاً مكذوباً وإن استملحه الناس ، ونلاحظ أنّ مرجع المعنى الأوّل والثاني إلى هذا الأخير ، ولأنّ ما لا دليل عليه لا ينشأ إلاّ من خلط الحقّ بالباطل أو الباطل ببعضه ، وبالتالي يكون من نسج الوهم والخيال لا من العقل ، ويمكن إرجاع جميع هذه المعاني الثلاثة إلى معنى جامع وهو كلّ ما لا واقعية له ، وإنّما يتوصّل الناس إلى عدم واقعيته من خلال انسداد طريق العلم بصدقه، وطرق العلم الحصولي ثلاثة هي الحس والعقل والشرع ، فكلّ ما لا دليل يثبت صدقه حساً أو عقلا أو شرعاً يحكم عليه بعدم واقعيته، وبالتالي فإنّ الاعتقاد به والتعامل معه يكون من الخرافة . هذا معنى الخرافة في اللغة وفي العرف ، والظاهر أنّ الشرع والمتشرّعة ليس لهم مصطلح يغاير هذا المفهوم ، ومن هنا تكون الخرافة من الحقائق العرفية لا الشرعية ولا المتشرّعية .

ولا إشكال في بطلان الخرافة وعدم مشروعيتها في الدين ; لوضوح أنّ الدين يقوم على الأدلّة والبراهين القاطعة وجداناً أو تعبّداً ، ولا مجال لدخول الخرافة فيه ، ولذا لا يجوز للمؤمن أن يتديّن بما هو خرافة أو يعظّمه ويقدّسه ،

ولـو فعـل ذلـك كان مبتدعـاً في الديـن وعاصيـاً ، فضـلا عـن خروجـه عـن موازيـن العقـل السـليم ، إلاّ أنّ هـذا المعنـى لا ينطبـق عـلى تعظيـم الشـعائر الدينيـة ; لمـا عرفـت مـن تضافـر الأدلّـة الشرعيـة والعقليـة وقيـام السـيرة العقلائيـة عليهـا ، فمـن أيـن تـرى نشـأت الخرافـة فيهـا ؟

الأمر الثاني : منشأ الخرافة في الشعائر

لسـائل أن يسـأل ممّـن نسـب تعظيـم الشـعائر إلى الخرافـة مـن أيـن نشـأت الخرافـة فيهـا ؟

والجواب لا يخلو من احتمالات :

الأوّل : أن تكـون الخرافـة قـد نشـأت مـن الحكـم ، بمعنـى أنّ حكـم تعظيـم الشـعائر حقيقـة موهومـة لم يؤسّسـها الـشرع ، بـل اخترعهـا النـاس مـن عنـد أنفسـهم .

الثـاني : أن تكـون ناشـئة مـن الموضـوع ، بمعنـى أنّ عنـوان الشـعائر في نفسـه باطـل لم يقـم عليـه دليـل عقـلي أو شرعـي ; إذ لا توجـد شـعائر في الديـن تسـتحقّ التعظيـم ، وكلّ مـا قيـل بشـعاريته فهـو ناشـئ مـن مخترعـات النـاس .

الثالـث : أن تكـون ناشـئة مـن تطبيـق الموضـوع عـلى مصداقـه في الخـارج، وهـي منشـأ مظاهـر تعظيـم الشـعائر وأسـاليبها ، فيكـون تعظيـم شـعائر الديـن نظـير تعظيـم أهـل الجاهليـة أصنامهـم بذبـح الهـدي عندهـا ، أو التمسّـح بهـا ، أو إظهـار الخضـوع والخشـوع لهـا ، ولا مجـال لنسـبة الخرافـة إلى الأوّل; لوضـوح بطلانـه ، بـل يسـتلزم الخـروج مـن الديـن . كـما لا مجـال لنسـبتها إلى الثـاني ; لمـا عرفـت مـن أنّ الـشرع لا يـشرّع حكـماً إلاّ معلّقـاً عـلى موضـوع، وموضـوع الحكـم لا يتصـوّر فيـه الكـذب أو الوهـم والخيـال ; لأنّـه يؤخـذ عـلى نحـو القضيـة الحقيقيـة ، وهـي

قضية افتراضيه لا يصدق فيها الكذب ولا البطلان ، فحديث الخرافة لا يجري في موضوعات الأحكام ، فلم يبق إلاّالاحتمال الثالث ، وهو أن تكون الخرافة في تعظيم الشعائر الدينية ناشئة من اختيار وسائل التعظيم وأفراده ، ومنشأ الخرافة فيه يعود لأُمور :

أحدها : أن يكون الأُسلوب خرافياً ; لأنّه لا ينطبق عليه عنوان تعظيم الشعيرة ، كمن يريد أن يعظّم المصحف الشريف بترك قراءته ، أو يعظّم العالم بعدم الحضور عنده واجتناب مجلسه ، ومن الواضح أنّ هذا النحو من العمل لا يعدّ تعظيماً ; لأنّ التعظيم يتمّ بخلافه .

ثانيها : أن يكون كذلك لعدم وجود دليل يدلّ عليه ، نظير تعظيم حرمة الميّت بالجلوس للعزاء عليه ثلاثة أيّام كما قيل[1].

ثالثها : أن يكون كذلك لقيام الدليل على عدم مشروعيته ، نظير تعظيم جماعة من الوضّاعين والسلاطين الظلمة بعنوان أنّهم صحابة أو أولياء الأمر، ولا يخفى أنّ عدم الدليل لا يساوق دليل العدم ، وهذه نكتة مهمّة سيظهر أثرها .

والمعنى الأوّل منها يكون من الخطأ في التطبيق ، وهو ليس من مصاديق الخرافة بالوجدان والعرف ، وإلاّ لنقض في سائر الموارد التي تحصل عند المكلّفين وفيها خطأ في التطبيق، نظير الخطأ في التطبيق في نيّة الاقتداء بإمام الصلاة، وتقليد المجتهد والغسل وإخراج الحقوق الشرعية ونحوها، ولازمه القول بتحريمه ، وهو مخالف للنصّ والإجماع ، فلذا يتعيّن تصحيح الخطأ عبر تنبيه صاحبه إلى ما هو الحقّ ، وأين هذا من الخرافة ونسبتها إلى تعظيم الشعائر؟

---

١ - أُنظر تهذيب الأحكام : ج٤ ، ص٢٠٤ ، حاشية رقم (٧٠) .

والمعنى الثاني أيضاً أجنبي عن موضوع الخرافة ; لأنّ ما لا دليل عليه من أساليب تعظيم الشعائر لا يخلو إمّا أن يكون له دليل عام يرجع إليه ، أو يكون مشمولا للأصل العام وهو الإباحة ، وهذا الأصل أسّسه الشرع، وأرجع المكلّفين إليه في كلّ ما لا دليل عليه ، أو يكون راجعاً إلى قصد المعظّم ونيّته في أن يدخله تحت عنوان من العناوين الراجحة شرعاً ، فلا يجوز نسبته إلى الخرافة .

والمعنى الثالث يتوافق مع مضمون الخرافة; لأنّ بعد قيام الدليل على عدم جواز الشيء لا يمكن التديّن به وإظهاره كأُسلوب لتعظيم الشعائر; إذ يدخل في موضوع الخرافة من جهة كذبه وبطلانه، كما يدخل في موضوع البدعة، إلاّ أنّ هذا المعنى لا ينطبق على تعظيم الشعائر الدينية; لما عرفت من أنّ الشرع قنّن الكبرى وحدّد موضوعها، وأوكل أمر تطبيقها إلى العرف، فكلّ ما يلتزم به العرف من أساليب ومظاهر لتعظيم الشعائر تكون مشروعة ما لم يردع عنها الشرع.

وعليه فإنّ النهي والردع يفتقر إلى دليل ، كما أنّ النسبة إلى الخرافة تفتقر إلى دليل ; لوضوح أنّ عدم الدليل على الشيء غير دليل العدم ، فكلّ تعظيم للشعائر لم يصلنا نهي عنه من قبل الشرع يكون مشروعاً ، كما يكون أجنبياً عن الخرافة، فنسبته إلى الخرافة لا تخلو من مغالطة وتجنّ كبير.

الأمر الثالث : لا خرافة في الضرورات

بغض النظر عمّا تقدّم فإنّ تعظيم الشعائر الدينية بالأساليب والطرق العرفية المختلفة هو في نفسه من الموضوعات المهمّة التي لا تتوقّف مشروعيته على ورود دليل شرعي خاصّ أو عام يدلّ عليه ; لأنّه من الضروريات البديهية التي يتّفق عليها جميع العقلاء فضلا عن المتشرّعة، فعدم الدليل على

بعض أساليبه لو افترضنا ذلك لا يساوق خرافيته ، كما لا يساوق الدليل على عدمه ، وهذا ما تؤكّده السيرة العقلائية في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية ; إذ هناك أكثر من ضرورة تدعو إلى وجوب تعظيم الشعائر الدينية بكلّ الأساليب المناسبة ، وفي عين الحال تبطل موضوع الخرافة . نكتفي ببيان ثلاث منها :

الضرورة الأُولى : اجتماعية إنسانية

فإنّ الملحوظ من أساليب الأُمم والشعوب في تعظيم شعائرهم ورموزهم الوطنية والدينية أنّ شعائرهم لا تكون مبتكرة ومستحدثة في وقتها في الغالب ، وإنّما هي عبارة عن موروث حضاري مكدّس تجتمع على تكوينه مجموعة الأفكار والمعتقدات والعادات والتقاليد والطبائع والأذواق عبر الأجيال ، وهو ما يعبّر عنه بعادات الشعوب وثقافاتهم ، وهذا ما تقتضيه الطبيعة البشرية التي تتأثّر بالأحداث والظروف وسائر ما يحيط بها من مؤثّرات ، وهذا ما نجده جلياً في أكثر المظاهر الفنّية والأدبية كالشعر والرسم والأفلام والأطعمة والألبسة وطريقة بناء البيوت والأسواق وطريقة الزواج وعقد مجالس الفرح والعزاء ونحو ذلك ، فإنّ الشعائر التي تؤمن بها الشعوب وتعظّمها وتعتبر بها ليست مبتكرات وقت واحد ، أو جيل واحد ، ولا تتكوّن دفعة وبمحض الصدفة ، بل هي عبارة عن توارث جملة من الخصوصيات بحيث تظهر بهذا المظهر أو بذاك ، فلذا تحمل الشعيرة هوية وخصوصيات كلّ مجتمع وقومية ووطن في ضمن معتقداته وعاداته وثقافته .

فالشعيرة ليست شعيرة فقط كما قد يتصوّرها البعض ، بل هي عبارة عن لوحة فنّية متكاملة تعبّر عن الكثير من المفاهيم والمعتقدات والأذواق والعادات ، فلذا تكون معبّرة عن الشخصية الاجتماعية والهوية العامّة لأهلها،

وهـذا مـا يؤكّـده علـماء النفـس الاجتماعـي ; إذ هـم متّفقـون عـلى أنّ مـن الخطـورة بمـكان تغيـير الشـعارات الوطنيـة أو التلاعـب بالمفاهيـم والثقافـات العامّـة لأي بلـد وأُمّـة ; لأنّ هـذه الشـعارات والرمـوز تمثّـل هويـة البلـد والأُمّـة ليـس في زمـان واحـد بـل عـبر أزمنـة طويلـة ، ولـذا نجـد أنّ البشريـة تحتفـظ بشـعائرها وتضحّـي مـن أجلهـا ، كـما نجـد اهتـمام المؤسّسـات العلميـة والتعليميـة فضـلا عـن السياسـية بحفـظ الـتراث في كلّ بلـد ، ويصرفـون عليـه أمـوالا كثـيرة; لأنّ الـتراث يعـدّ ثـروة كبـيرة تحكـي عـن وجـود حضـارات اسـتنزفت الكثيرمـن الجهـود والطاقـات حتّـى كوّنـت حصيلـة تسـتدعي الفخـر والاعتـزاز.

كـما نلاحـظ أنّ نقـل الثقافـات والعـادات إلى البـلاد الأُخـرى تعـدّ مـن أهـمّ أسـاليب التأثـير والانتصـار في الصراعـات السياسـية بـين الـدول ، ومـن هنـا تـصرّ بعـض الـدول العظمـى عـلى ترويـج لغتهـا ومفاهيمهـا بـين الشـعوب ; إذ تـصرّ بريطانيـا مثـلا وبالرغـم مـن انحسـار دورهـا في العـالم اليـوم عـلى ترويـج لغتهـا الانكليزيـة وتكريـس مفرداتهـا في لغـات الشـعوب ، وذلـك لأنّ وراء تعلّـم اللغـة تحميـل الثقافـات والمفاهيـم العامّـة ، والـذي هـو الآخـر يخـدم الكثـير مـن مشـاريع هـذه الدولـة ، كـما تسـتخدم اليـوم اميـركا سياسـة القـوّة الناعمـة مـن خـلال ترويـج ثقافتهـا وعاداتهـا وأسـاليب حياتهـا وشـعاراتها عـبر الأفـلام والبرامـج والمسرحيـات ونحوهـا .

والخلاصـة : أنّ تعظيـم الشـعائر الدينيـة يمثّـل النهـج الـذي يحفـظ هويـة الأُمّـة، ويحيـي معالمهـا وكرامتهـا ، ويشـيد بانجازاتهـا التاريخيـة والحضاريـة، وهـذا أمـر محبـوب راجـح يلـزم بتعظيمـه العقـل والعقـلاء فضـلا عـن الـشرع ، واختـلاف وسـائل التعبـير عـن هـذا الاحـترام والتعظيـم يكـرّس محبوبيتهـا ومكانتهـا في الأُمّة.

الضرورة الثانية : ذاتية نفسية

إنّ الحياة الإنسانية تقوم في مختلف جوانبها على أساس احترام الأفكار والعقائد التي يعتقد بها الناس ، وعلى هذا الأساس يحكم على الأنظمة السياسية والاجتماعية في العالم ، وهو مبدأ عام تقرّه جميع القوانين والأعراف والأنظمة، ولا يختلف في هذا نظام عن نظام ، ولا قانون عن قانون ، ولا بلد عن آخر مهما اختلفت المذاهب والآراء .

ومن هنا أقرّ جميع عقلاء العالم واعترفت قوانينهم بحرّية الفكر والمعتقد وحقّ التعبير عن هذا الحقّ بحرية ، وذلك لأنّ لكلّ مجتمع رموزاً وشعائر محترمة ومقدّسة ، وله أساليب وطرقاً للتعبير عن هذا الاحترام والتقديس .

والملحوظ أنّ جميع العقلاء يحترمون هذا التعبير ، ويجدونه حقّاً طبيعياً فلا ينتقصون منه ، ولا ينسبونه إلى الخرافة ، ولو تأمّلنا في عادات الشعوب وتقاليدهم وأساليبهم المختلفة في التعبير عن هذا المبدأ لوجدنا أنّ الكثير منها ممّا يمكن نقده والانتقاص منه ، أو ربما نسبته إلى الخرافة بحسب الواقع والموازين العقلية الصحيحة ، إلاّ أنّ هذا ما لا يقع عادة ; لأنّ عقلاء العالم يحترمون اعتقادات الشعوب كما يحترمون مشاعرهم وأساليبهم التي يجدونها مناسبة للتعبير عن هذه المعتقدات والمشاعر .

ونلحظ هذا كثيراً في بعض أساليب الرياضيين في التعبير عن أفراحهم في الفوز والانتصار ، وفي أساليب الفنّانين والأُدباء لدى نيلهم بعض الشهادات والجوائز ، وفي أساليب الشعوب في التعبير عن أفراحهم في الأعياد الوطنية، وعن أحزانهم في الكوارث والنكبات ، فضلا عن تعبيرهم عن احترام مقدّساتهم ورموزهم الوطنية والإنسانية .

ومتى ما أظهر أحد منهم النقد لهذه المظاهر قوبل بالردّ ، وعدّ نكراناً للحقيقة وتعدّياً على حقوق الناس وحرّياتهم ، وهذا أمر واضح لا يحتاج

للإثبات أكثر من بعض الالتفات إلى عادات الأفراد والشعوب وطرقهم المختلفة في التعبير عن آرائهم ومعتقداتهم وإظهار مشاعرهم .

ونلحظ أيضاً أنّ سائر الشعوب على اختلاف اتّجاهاتها ومذاهبها حينما تعتقد بعقيدة فإنّها لا تمتنع عن إظهارها أو تتخفّى منها خجلا أو مجاملة، بل تبدي ما تعتقده وتعلنه ، وتظهر احترامها وتقديسها لرموزها وتشيد بها ، ولا تبالي بما يقال عنها ، وما ذلك إلاّ لأسباب عمدتها سببان :

أحدهما : أنّها واثقة من عقيدتها ، وتريد التعبير عنها بصدق .

ثانيهما : أنّها ترى أنّ الذين يمكن أن ينتقصوا أو يستهزئوا بما تفعله وتؤمن به غير مدركة لحقيقة هذا الإيمان ، أو غير متفهّمة لمشاعر أهله .

ومن الواضح أنّ المعتقِد المؤمن بعقيدته والواثق من صحّتها لا يهمّه ما يقال عنه ما دام المنتقِد أو المنتقِص غير مؤمن بهذه العقيدة ; لأنّ من الواضح أنّ الجاهل بحقيقة أمر قد ينكره أو يستهجنه ، وربما يعدّه نوعاً من السذاجة أو الخرافة ، لكنّ هذا لا يؤثّر على المؤمنين بصحّة هذه العقيدة والملتزمين بنهجها .

ومن هنا نرى أنّ المسيح في العالم يزورون الكنائس ويؤدّون مراسمهم العبادية ويعبّرون عن احترامهم لكتابهم ولقساوستهم وكنائسهم ويعظّمون مقدّساتهم ولا ينتقدهم المسلمون أو ينتقصون منهم ، مع أنّ بعض ما يعتقده المسيحيون ويقدّسونه يعدّ باطلا عند المسلمين ، كما لا نجد أنّهم ينتقصون المسلمين على جملة من طقوسهم ومراسمهم ، ومثل ذلك يقال في اليهود والزرادشت والهندوس ، والبوذيين وسائر أهل المذاهب والأديان .

كما لا نرى أنّ الشعوب الأُوربية ولا غيرها تنتقد الشعوب الامريكية لا

سيّما الجنوبية منها على ما يقومون به من مراسم وطقوس ، ولا العكس، فلا أهل الأديان ينتقدون بعضهم ويستهزئون بهم ، ولا أهل القوميات والقبليات، ولو انتقد أحد منهم لا يعدّون هذا النقد صحيحاً ; لأنّهم يدركون أنّه لم يصدر عن عالم عارف بحقيقة معتقداتهم ومشاعرهم .

ومن الواضح أنّ الذي لا يؤمن بعقيدة ما لا يمكنه أن يحترم مقدّساتها، ويظهر التعظيم لها ; لأنّ تعظيم رموز العقيدة وشعائرها هو فرع تعظيم ذات العقيدة ، وهذا أمر لا ينبغي أن يقع فيه كلام ; لأنّه من المسلّمات الواضحة ، وإنّما الذي ينبغي أن يقع فيه الكلام هو ماذا يريد المعترض بقوله أنّ تعظيم الشعائر الإلهية برمّتها أو بعضها من الخرافة ؟ لأنّ هذا الوصف في نفسه مجمل غير واضح ; لأنّه يحتمل أكثر من معنى .

الاحتمال الأوّل : أن يكون مراده أنّ تعظيم شعائر الدين في نفسه من الخرافة، وقد عرفت بطلانه .

الاحتمال الثاني : أن يكون مراده أنّه خرافة في أنظار المعتقدين بالدين ، وهذا باطل أيضاً ; إذ لا يمكن أن يكون المعتقد بالدين معتقداً بخرافة تعظيم رموزه وشعائره .

الاحتمال الثالث : أن يكون مراده أنّه خرافة في أنظار غير المعتقدين بالدين كاليهود والنصارى بالقياس إلى الإسلام مثلا ، فلو رأوا أنّ المسلمين يعظّمون صلاة الجماعة والكعبة وذرّية النبي (صلى الله عليه وآله) وعترته بالحضور في مراقدهم وإقامة العزاء على مصائبهم مثلا فإنّهم ينتقدونهم ، وينتقصون منهم ومن آرائهم .

وهذا الاحتمال وإن كان وارداً عقلا إلاّ أنّه نادر الوقوع خارجاً ، وإذا وقع فغالباً ما يكون من أفراد قلائل إمّا لا يحترمون عقائد الناس أو لهم دوافع

سياسية تقف وراء النقد . يعرف هذا من تخلّيهم عن نقد الرموز والشعائر المتعلّقة بغير الإسلام والمسلمين وتوجيه نقدهم وانتقاصهم إلى الإسلام والمسلمين فقط ، فلو كان النقد ناشئاً من الثاني فليس من الحكمة بمكان الاستماع إلى من يخطّط لمحاربة الإسلام وشعائره التي تحييه وتبقيه حيّاً طرياً في جميع العصور والأزمنة والتصديق بمقالتهم ; لوضوح أنّ الخصم قد ينسب إلى خصمه ما لا يصحّ عداوة منه .

وإن كان ناشئاً من الأوّل فهو أيضاً لا ينبغي الاستماع له ; لأنّه مبني على الجهل بحقيقة الإسلام وشعائره ، ومن الواضح أنّ غير المؤمن بالإسلام قد لا يؤمن بما يتفرّع عنه ، ولو جاز تصديق الصفات التي ينسبها الجاهلون بالإسلام إليه لاستلزم العمل بأحد أمرين :

الأوّل : أن نبدي تجاوباً مع مقالاتهم الانتقاصية ، وبالتالي ننسب إلى الدين ما ينسبه إليه خصومه أو غير المعتقدين به ، وهذا ينتهي إلى الخروج من الدين حكماً ، وربما موضوعاً إن استندت النسبة إلى اعتقاد بهذا القول .

الثاني : أن نتخلّى عن تعظيم كلّ ما يعدّه غير المعتقدين بالدين بدعة أو خرافة في الدين ; لأجل كفّ نقدهم وانتقاصهم ، وهذا ما لا يمكن الالتزام به ; لأنّه ينتهي إلى أكثر من تال فاسد ، ولا نظنّ أنّ المعترض نفسه يقبله ، وذلك لأنّ من لا يؤمن بالدين قد ينتقد مظاهر كثيرة فيه كمناسك الحجّ ، وحجاب النساء ، وصلوات الجماعة ، وحرمة حلق اللحية للرجال ، ومجالس العزاء ، وطريقة الصلاة سجوداً وركوعاً ، ونحو ذلك ، ويعدّها من الخرافة، وربما يستمرّ في نقده شيئاً فشيئاً لأجل أن يرفع المسلم يده عن دينه ، ويدخل في دين غيره ; إذ قال سبحانه : ﴿**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَالنَّصَارَى حَتَّى**

تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ)[1] فهل يمكن ذلك ؟ وهل تكليف المؤمن أن يرضي غير المعتقدين بالدين ويستمع لآرائهم فيه ؟ وهل هناك حدّ يقف عنده رضاهم وقبولهم بالدين ؟ ثمّ ما هي الفائدة من رضاهم بالدين وسكوتهم عن نقده ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي يترتّب عليها الكثير من التوالي الفاسدة .

والحاصل : أنّ نسبة تعظيم الشعائر إلى الخرافة أمر يتنافى مع الشخصية الذاتية لكلّ مجتمع وأُمّة تقوم على أساس احترام العقائد وتكريم رموزها ومقدّساتها وعدم المبالاة بالنقود والاتّهامات التي توجّه إليها من قبل غير المؤمنين بها ; لأنّه نقد إمّا ينشأ من عدم إدراك حقيقة الدين ، أو من دوافع سياسية ، وكلاهما يستدعيان مزيداً من التمسّك بالدين والاهتمام بتعظيم وتكريم شعائره لأجل إبقائه حياً حاكماً في حياة الناس .

الضرورة الثالثة : تبليغية إيمانية

لا شكّ في أنّ لكلّ عقيدة ودين جنبة تبليغية ، ومن أبرز مناهج التبليغ هو تعظيم شعائر الدين وتقديس رموزه ونشرها في الأرجاء ، وهذا النهج مشترك يتّبعه سائر أهل الأديان والمذاهب والمدارس الفكرية ، ودعا إليه الشرع في آيات وروايات كثيرة من القرآن والسنّة ; إذ حثّ الناس على تبليغ الدين وترويج أحكامه ، ووعد المؤمنين بأنّه سبحانه سيظهر دينه على الدين كلّه ولو كره الكافرون ، وهناك أكثر من هدف رعته حكمة الدين ودعت إلى الأمر بتعظيم الشعائر الدينية وإحيائها في كلّ زمان ومكان.

الأوّل : إظهار قوّة الدين في المجتمع وهداية أبنائه إلى التديّن والإيمان بالعقيدة والتمسّك بنهجها وبذلك يرتقون فكراً وعملا ، وينشغلون في أداء وظائفهم الشرعية والإنسانية تجاه الدين ، وينالون مزيد الأجر والثواب ،

---

١ - سورة البقرة : الآية ١٢٠ .

فضلا عن درجات القرب المعنوي التي ينشدها كلّ مؤمن ، وهذه الغاية في أعلى درجات الأهمية ; لأنّها تعبير عن الإيمان والالتزام العملي بالتكاليف والوظائف الشرعية التي وضعها الشرع على كاهل المؤمنين من تعظيم الشعائر وتقوية الدين ونشر أحكامه ومحاربة أعدائه .

فتعظيم الشعائر تحت هذه الغاية من أبرز مظاهر التديّن والعبادة والتقرّب إلى الله سبحانه ، فلذا لا ينبغي للمؤمن أن يبالي بما يقال عن طرق التعظيم وأساليبه ; لأنّ الغاية هي رضا الله سبحانه لا رضا الناس أو إرضاؤهم ، فيكفي المؤمن أن يتقرّب إلى الله بكلّ ما يصدق عليه أنّه شعيرة دينية ، أو يدخلها تحت عنوان الشعيرة بقصده ونيّته كما عرفت تفصيله ممّا تقدّم .

الثاني : ترويج الدين بين المتديّنين وتثبيت أقدامهم عليه ، وهذه تأتي في الرتبة الثانية من حيث الأهمية ; لأنّ الصراعات السياسية ونوازع النفوس الضعيفة ومحاربات الشيطان للمؤمنين تعود على الناس بالكثير من الأزمات والشبهات ، وربما تضعف من تمسّكهم بدينهم ، فلابدّ من وجود مظاهر وممارسات تذكّر الناس دائماً بهويّتهم وبأصالتهم الدينية ، وتوري في قلوبهم شعلة الإيمان والعمل الصالح ، وهذه هي مراسم تعظيم الشعائر الدينية بمظاهرها كافّة في مقابل ما يصنعه خصوم الدين والداعون إلى الدنيا والتمسّك بزخرفها وزبرجها ، فإنّهم يدعون إلى تعظيم مظاهر الدنيا والوغول في المزيد من شهواتها وملذّاتها ، فيحيون مراسم الأعياد الكاذبة ، ويدعون الناس إلى مزيد من الفسق والفجور والحفلات الشيطانية ونحوها من أساليب معهودة ومعروفة ، فما الذي يواجه أساليب الفساد ؟ وكيف يمكن مكافحة هذه المظاهر بغير تعظيم شعائر الدين وترويج مبادئه وقيمه وأحكامه ؟ وما الذي يحيي كرامة الناس ويحفظ هويّة الوطن والمواطنين غير اجتماع الناس

تحت لواء تعظيم رموز الدين والاقتداء بهم ؟

الثالث : ترويج الدين وإيصال مبادئه وقيمه إلى الآخرين من غير المؤمنين به ، وهذه الغاية تستدعي أن يكون تعظيم الشعائر بنحو يحاكي عقول الآخرين وأفكارهم ، ويدعوهم بشكل غير مباشر إلى احترام مكانة الدين والدخول فيه ، وحتّى يكون ذلك لابدّ من ملاحظة عدّة نكات:

الأُولى : أنّ تعظيم الشعائر بهذه الغاية لا يمكن أن تكون صيغة عامّة تنطبق على جميع الشعائر ، فهناك شعائر مهمّة تحقّق الغاية الثانية أو الأُولى قد لا تنسجم في أُسلوبها ومظاهرها مع هذه الغاية ، فيجب الحفاظ على الموازنة بين الأمرين لكي لا يكون شيء على حساب آخر ، ولعلّ المعترض الذي أراد التخلّي عن بعض الشعائر ونسبها إلى ما لا يصحّ نسبته إليها نظر إلى جهة الترويج والتبليغ ، وغفل عن أنّ الذين يعظّمون شعائر الدين قد تعنيهم الغاية الأُولى والثانية ، وأمّا الغاية الثالثة فهي مهمّة المعنيين بترويج الدين بأن يتّخذوا أساليب تحاكي عقول غير المؤمنين .

الثانية : أنّ تعظيم الشعائر بالغاية الأُولى والثانية أهمّ شرعاً وعقلا من الغاية الثالثة ، فإذا تزاحم الأمر بين التعظيم بالغايتين الأُولى والثانية مع الغاية الثالثة ولا يمكن الجمع ترجّح الأُولى وإن استلزم ذلك عدم تفهّم غير المؤمنين بالدين ، أو انتقاص المتديّنين على فرض حصوله ; لما عرفت من أنّ غير المؤمن بالدين لا يقبل ذات الدين فما بالك بفروعه وأحكامه ؟ ولو كان له مشروع انتقادي تقف وراءه مصالح سياسية فهو لا يكفّ نقداً ، فهل يرفع المؤمنون أيديهم عن دينهم وتعظيم رموزهم وشعائرهم لأجل إرضائه؟ وهل يمكن غلق باب النقد والانتقاد يوماً بمثل ذلك ؟

الثالثة : أنّ تبليغ الدين لا ينحصر بتعظيم الشعائر لكي يستدعي الأمر

المزاحمة ، بل في الغالب هناك أساليب يمكن استعمالها من قبل أهل الفكر والنظر لترويج الدين ومحاكاة عقول غير المؤمنين به وإبقاء تعظيم الدين ورموزه للمتديّنين يتقرّبون بها إلى ربّهم ، ويحفظون بها إيمانهم وأُصولهم .

الرابعة : أنّ تعظيم شعائر الدين برمّتها تتوافق مع العقل والفطرة والمبادئ الحقّة ، فلو نظر إليها من يريد تفهّم الحقيقة أوصلته إليها ، ولكن ذلك لمن يريد معرفة الحقيقة ، وهذا ما تؤكّده وقائع الأحداث ، فإنّ الكثير من غير المتديّنين تديّنوا ، والكثير من غير المؤمنين بالدين آمنوا به وأسلموا بسبب تعظيم الشعائر التي نسبها المعترض إلى الخرافة ، وأمّا من لا يريد معرفة الحقيقة فهو لا يؤمن بكلّ ما تصنع له ، وهذا أمر واضح .

ومن هنا نؤكّد على أنّ هذه الغايات الثلاث مأخوذة في تعظيم الشعائر الدينية بنحو مانعة الخلو لا مانعة الجمع ; إذ يمكن أن تجتمع جميع الغايات في بعض الشعائر أو في جميعها .

الخامسة : أنّ في تعظيم الشعائر والتمسّك بها اختبار لقوّة المؤمن وثقته بدينه ومعتقده ، وترجيح تعاليمه وأحكامه على هواه وآرائه الشخصية، وثباته عليها في مواجهة التحدّيات ، وهي من السمات التي تقتضيها شخصية المتديّن وسجاياه النفسية والأخلاقية ; إذ لا يمكن أن يكون الإنسان مؤمناً متديّناً من دون أن تظهر شعائر الإيمان على جوانحه وجوارحه وأفكاره ومواقفه ، ومن ذلك انقياده لأحكام الدين والتزامه بأوامره ونواهيه مهما بلغت الصعوبات ، وحيث إنّ الدين نصّ على لزوم تعظيم شعائره ومحاربة شعائر الباطل لا يملك المؤمن إلاّ أن يسلّم لذلك ، ويتديّن به من دون أن يجد في نفسه حرجاً منها مهما تقوّل عليها المتقوّلون جهلا أو عمداً ; لأنّ الإيمان لا يخضع للظنون والمشتهيات ، بل هو عقد في القلب وإقرار باللسان وعمل بكلّ ما جاء من

عند الله سبحانه كما تضافرت به الأخبار[1]، فلولا صبر المؤمنين الأوائل على تقوّلات المشركين ومهاناتهم واستهزائهم وثباتهم على الحقّ بإصرار وقوّة لتعذّر عليهم إقامة الدين وإحياء معالمه، ولتعذّر وصوله إلينا، فبصبر هؤلاء وشدّة ثقتهم بأنفسهم وبدينهم وتحدّيهم للصعوبات المختلفة التي واجهتهم بقي الدين قائماً، وبقي المتديّنون أقوياء مكرمين يحيون شعائره بثقة واعتزاز.

ومن هنا أمر الباري عزّوجلّ المؤمنين بالصبر والمصابرة والمرابطة، وجعل هذا الأمر مساوقاً للتقوى التي هي من أهمّ فرائض المسلم، بل أكّد أنّ النصر والفلاح يقوم على ركنين مهمّين هما: التقوى والصبر في سبيل الله; إذ قال سبحانه: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)**[2] والآية تضمّنت الأمر الدالّ على الوجوب النفسي العيني التعييني، وقد تعلّق بالصبر أوّلا ليكون كلّ مؤمن ثابتاً في موقفه، وتعلّق بمصابرته ثانياً ليقوم بمهمّة تثبيت الآخرين وشدّ أزرهم حتّى يكون الثبات والمقاومة والتحمّل صفة عامّة في المجتمع، وتعلّق بالمرابطة ثالثاً لأجل ربط القلوب ببعضها البعض، وربط الأبدان بمواقع المواجهة والتحدّيات لكي تسدّ الثغور، وتحصّن الأُمّة فلا تصاب بانكسار أو هزيمة كما هو مفاد المرابطة لغةً وعرفاً[3].

وتؤكّد الأخبار الشريفة أنّ دلالة الآية لا تختصّ بالجهاد الحربي، بل تشمل كلّ موقف يرتبط بالدين سواء على مستوى العبادات والفرائض أو على مستوى الفكر والعقيدة أو على مستوى المقاومة والثبات أمام الهجمات المعادية; لأنّ الجميع مظاهر للجهاد، ومن هنا أطلق الإمام الصادق (عليه

---

١ - أُنظر الخصال: ج١، ص١٧٨، ح٢٤٠; أمالي الطوسي: ص٥٥١.

٢ - سورة آل عمران: الآية ٢٠٠.

٣ - أُنظر معجم مقاييس اللغة: ص٤١٧، (ربط); مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٣٨ ٣٣٩، (ربط).

السلام) على العلماء والمبلّغين لفظ المرابطين بقوله : «**علماء شيعتنا مرابطون في الثغر الذي يلي إبليس وعفاريته ، ويمنعونهم عن الخروج على ضعفاء شيعتنا وعن أن يتسلّط عليهم إبليس**»[1].

ويستفاد من هذا الحديث أنّ الثغور الفكرية والثقافية في الأُمّة أهمّ وأخطر من الثغور العسكرية ، وهو ما يقضي به العقل والتجارب البشرية، فإنّ الانتصارات والهزائم تبدأ من الفكر أوّلا ، وأهمّ خطوة في حفظ الفكر وشدّ أركانه في الأُمّة تبتدئ باحترام الشعائر وتعظيمها ; لأنّها بمثابة الإعلان عن هوية الأُمّة وثباتها على مواقفها ومنعتها في مواجهة التحدّيات، كما أنّها أوّل خطوة باتّجاه النصر والفلاح .

فالأُمّة التي تحترم شعائرها الدينية وتتمسّك بها أُمّة مفلحة ومنتصرة، وبعكسها الأُمّة المتخاذلة المنهزمة ، ولعلّ من هنا عبّرت الآية عن الغاية من الصبر والمصابرة والمرابطة بصيغة الرجاء ، فقال : (**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**)[2] وذلك لأنّ تحقّق الفلاح يتوقّف على مدى تمسّك الأُمّة بهذا النهج والتزامها بشروطه، فالنصر والهزيمة يدوران مدار الأسباب والمسبّبات لا الوعود والكلمات ، ولا الركون إلى الصدف والمفاجآت ، فلا يمكن أن تنتصر أُمّة وهي تتخلّى عن دينها ، ولا تحترم شعائره ، ولا تعمل بأحكامه ، كما لا يمكنها أن تفلح وهي تستمع لأقوال خصومها ، وتتأثّر بنهجهم ، وتسايرهم في أفكارهم ومواقفهم ، وهذه نكتة هامّة تكشف لنا بعض السرّ الذي يقف وراء محاولات تضعيف الشعائر ومحاربتها واتّهامها بالخرافة .

وبذلك يظهر أنّ الضرورات الثلاث الإنسانية والنفسية والتبليغية تقتضي الاهتمام بتعظيم شعائر الدين وتضخيمها في المجتمع المؤمن وغيره ; لما لها

---

١ - الاحتجاج : ج١ ، ص١٣ ، ح٧ .

٢ - سورة البقرة : الآية ١٨٩ ; سورة آل عمران : الآية ١٣٠ و ٢٠٠ ; سورة المائدة : الآية ٣٥ .

مـن آثـار كبـيرة في حفـظ هويـة المجتمـع المؤمـن وصونـه مـن الذوبـان والانحـلال ودعـوة الآخريـن إلى الإيـمان بـه واحـترام مظاهـره السـامية ، وهـذه غايـات يتوافـق عليهـا العقـلاء ، وتقرّهـا أنظمتهـم وقوانينهـم ، وهـي حقائـق واقعيـة لهـا دورهـا ومكانتهـا في الحيـاة الإنسـانية ، ولا تمـت إلى الخرافـة ولا الوهـم والخيـال بصلـة ، فنسـبتها إلى ذلـك لا تخلـو مـن مغالطـة أو توهّـم .